الدراية
مجلة علمية محكمة
تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

زكي نجيب محمود بين الأصالة والمعاصرة

بحث مقدم من
د/اليماني عبد العزيز الفخراني
مدرس العقيدة والفلسفة كلية أصول الدين بالقاهرة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فقد كان زكي نجيب محمود واحداً من كثرة كثيرة من المثقفين العرب، الذين تفتحت أعينهم منذ الطفولة وانتهاءً بالرجولة على الفكر الغربي ، حتى ظنوا أن أوربا هي العالم كله ، من مبتدئه وحتى منتهاه، وأن الفكر الأوربي هو وحده الفكر الإنساني ، وما سواه مما أنتجه غير الأوربيين فلا وزن له، ولا عجب فقد كان الفكر الأوربي محور دراسته أيام التحصيل ومدار عمله بعد ذلك ، كما أن البيئة التي تربى فيها كانت بيئة احتلال انجليزي لمصر، وقد عمل الاحتلال على نشر ثقافته من جهة، كما أن المغلوب مولع بتقليد الغالب من جهة أخرى، وأما التراث العربي فلم تكن له مكانة تذكر بالمقارنة مع مكانة الفكر الغربي عنده.

ثم أراد الله به خيراً، و" من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين "كما روى ذلك البخاري ومسلم، فصمم على تدارك ما فاته من التراث، فأخذ يعب من التراث ما أمكن، ينهل من معينه قدر استطاعته، يسير على هدى أو على تخبط، فكان يشبه المسافر الغريب، يعجب مما يراه، وينتبه لما يغفل عنه أبناء البلد، ولكن لفت انتباهه أن ما قد استوقفه من قضايا تراثية عندما يسأل عنه أهل الذكر فلا يجد جواباً وكأنهم من إلفهم للقضايا لم ينتبهوا لما انتبه إليه .

في هذه اللحظات التي استغرقت معظم حياته وخاصة في نصفها الآخر أخذ قراره، وعزم على أن يكمل النقص في جوانب ثقافته، فبدأ بالغوص في بحر الثقافة العربية، فإذا لم يتمكن من المعرفة الشاملة والإلمام الكامل بالتراث ،فلا أقل من أن يضيف إلى فكره إضافات وقيم من التراث تؤهله كي يكون عربياً معاصراً.

وبكثرة القراءة في التراث أخذ يتساءل هل ينفعه التراث في هذا العصر؟ وفي نفس الوقت يسأل نفسه ما طبيعة هذا العصر الذي يحياه؟. وهل يصلح ميراثنا الفكري لعصرنا الحاضر أم لا يصلح؟. هنا برزت قضية الأصالة والمعاصرة عنده، وكيف يجمع بينهما في مركب جديد يحفظهما ولا يبددهما؟؟.

وهنا تكمن أهمية هذا البحث الذي يهدف لإلقاء الضوء على أهمية الأصالة والمعاصرة في فكر زكي نجيب ، وبيان المقصود بالأصالة والمعاصرة، ومعالم التوفيق بينهما في فكر زكي نجيب محمود.

وقد جاء هذا البحث في صورة :مقدمة، وثلاثة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة فيدور الحديث فيها عن أهمية الموضوع وسبب اختياره، وما اشتمل عليه من مباحث.

أما المبحث الأول فيدور الحديث فيه عن أهمية الأصالة والمعاصرة في فكر زكي نجيب محمود، والمساحة التي احتلتها هذه القضية وخاصة في الشطر الثاني من حياته، والمساحة الفكرية التي استغرقتها من مؤلفاته. كما تتضمن تعريفاً بمفكرنا، وتتبعا للسمات الفكرية الغالبة لهذا المفكر وفقا لعقود حياته.

أما المبحث الثاني: فيدور الحيث فيه حول مفهوم الأصالة والمعاصرة في اللغة وفي فكر زكي نجيب محمود.

أما المبحث الثالث: فيدور الحديث فيه حول ملامح أو معالم المشروع الفكري في الجمع بين الأصالة والمعاصرة في فكر زكي نجيب محمود والثوابت والمتغيرات في تراثنا الفكري من وجهة نظره، ومن يتأمل كلمات وعبارات مفكرنا الواردة في هذا المبحث يجد بلا عناء وهن الاتهامات التي تكال للرجل بلا بينة.

ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج والمراجع .

المبحث الأول: أهمية الأصالة والمعاصرة في فكر زكي نجيب محمود[١]

١ – ولد في أول فبراير ١٩٠٥ م بقرية ميت الخولي عبد الله، بمحافظة دمياط بمصر. في نحو الخامسة انتقل مع الأسرة للقاهرة، حيث تلقى تعلميه بالمرحلة الأولية بمدرسة السلطان مصطفى بالقاهرة. في التاسعة انتقل مع الأسرة إلى الخرطوم بالسودان حيث يعمل والده، وهناك التحق بكلية غوردن حيث أمضى مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي .عاد إلى مصر لينال شهادة الثانوية، وبعدها التحق بمدرسة المعلمين العليا قسم الآداب ،ونال منها الليسانس في الآداب والتربية ١٩٣٠م .انضم عضوا في لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٤م .سافر إلى انجلترا عام ١٩٣٦م في بعثة صيفية لمدة ستة شهور. اشتغل بالتدريس في التعليم العام حتى سنة ١٩٤٣م .نال جائزة التفوق الأدبي من وزارة المعارف ١٩٣٩م .في سنة ١٩٤٤م سافر إلى انجلترا لينال الدكتوراه في الفلسفة، وهناك حصل في عام ١٩٤٥م على البكالوريوس الشرفية من الطيقة الأولى في الفلسفة من جامعة لندن، وهي درجة تعفي صاحبها من درجة الماجستير، فتقدم بموضوعه للدكتوراه، وحصل عليها عام ١٩٤٧م وكان عنوان رسالته" الجبر الذاتي" وقام بترجمتها د/إمام عبد الفتاح إمام. ثم عاد إلى مصر ،ومنذ عودته ١٩٤٧م التحق بهيئة التدريس بكلية الآداب قسم الفلسفة بجامعة القاهرة. أشرف على تحرير مجلة الثقافة من عام ١٩٤٩ إلى ١٩٥٢م..في سنة ١٩٥٣م سافر إلى أمريكا أستاذاً زائراً بجامعة كولومبيا ثم في جامعة بولمان.في العام ١٩٥٤م– ١٩٥٥ م عمل ملحقاً ثقافيا بالسفارة المصرية بواشنطن. تزوج من الدكتورة منيرة حلمي ١٩٥٦م .في عام ١٩٥٦ تم اختياره عضوا في لجنتي الفلسفة والشعر بالمجلس العلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .في سنة ١٩٦٠ نال جائزة الدولة التشجيعية للفلسفة ،وكان ذلك عن كتابه "نحو فلسفة علمية". في عام ١٩٦١م اشترك في مؤتمر الغزالي بدمشق ،وقدم بحثاً بعنوان" الغزالي في شعره". في عام ١٩٦٢م اشترك في مهرجان ابن خلدون بالقاهرة، وقدم بحثاً عنوانه " موقف ابن خلدون من الفلسفة" .في عام ١٩٦٤م انتدب للمحاضرة في الفلسفة بجامعة بيروت العربية. في عام ١٩٦٥م أنشأ باسم وزارة الثقافة في مصر مجلة "الفكر المعاصر" ورأس تحريرها إلى أن سافر الكويت ١٩٦٨م لتدريس الفلسفة خمس سنوات إلى عام ١٩٧٣م ،ومنذ عودته من الكويت ١٩٧٣م انتدب للكتابة في الأهرام حتى ١٩٩٠م .نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٩٧٥م .ونال معها وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى. عين عضواً بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضوا بالمجلس القومي للثقافة، وعضوا بالمجلس القومي للتعليم والبحث العلمي. في ديسمبر عام ١٩٨٤م منحته جامعة الدول العربية جائزة الثقافة العربية .وفي عام ١٩٨٥م درجة الدكتوراه الفخرية من الجامعة الأمريكية .وفي عام ١٩٩١م منحته الإمارات جائزة سلطان بن علي العويس في الفلسفة . وفي ١٢ ربيع الأول ١٤١٤هـ ٨ سبتمبر ١٩٩٣م توفي إلى رحمة الله تعالى. راجع "من خزانة أوراقي" د /زكي نجيب محمود ط دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ط ١ ١٩٩٦م ص ١١– ١٣.بتصرف،وهو كتاب وثائقي أعده للنشر ولكن توفاه الله تعالى فنشرته زوجته بعد وفاته. وانظر زكي نجيب محمود مفكرا عربيا ورائدا للاتجاه العلمي التنويري. كتاب تذكاري تحت إشراف وتصدير د/ عاطف العراقي ط دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الاسكندرية ص ٢٢– ٢٤.وقد ترجم لنفسه في ثلاثة كتب :قصة نفس وقصة عقل و عربي بين ثقافتين.

قضية الأصالة والمعاصرة محور هذا البحث وقضيته، برغم ظهورها في أشكال مختلفة في كتب زكي نجيب محمود ومقالاته، ومن تصوير أدبي إلى كتابة تحليلية علمية، فلا زال يدعو بكل قوته إلى أن نزيد من اهتمامنا" بالعلم"، كما يدعو أيضاً إلى الأخذ بأسس الحضارة العصرية وما يتبعها من ثقافة، ولو كانت هذه الثقافة على حساب الثقافة الموروثة، ثم صوب نفسه فاكتملت الصورة عنده بالدعوة إلى البحث عن صيغة تصون لنا هويتنا دون أن يضيع منا العيش في عصرنا عصر العلم والتقدم.

من وفقه الله تعالى لقراءة كتب مفكرنا زكي نجيب محمود يدرك بيسر أنه كان عقلاً يبحث لنفسه عن طريق، وقلباً يبحث عن استقرار، ورائداً يخلص في نصيحته، ومجتهداً يبحث عن الصواب، وظل يبحث منذ بدأ عهد الإنتاج الفكري خلال أعوام الثلاثينيات. إنه لم يكف يوما عن القراءة والكتابة، فقد كان حائراً يستريح للفكرة وضدها، يركن للتصوف والوجدان حيناً، ويتعصب للعلم في صرامة تارة أخرى، تنازعت المتناقضات في نفسه أو هكذا تخيل ما بينها من تناقض، وهكذا يتخيل المطلع على مؤلفاته على عجل، ولكن الحقيقة أنه سعى لسبيل يجتمع فيه العلم والدين والتصوف والحرية والمادة والروح والعقل والغريزة، الأصالة والمعاصرة .

وقد أجاد كعادته في وصف ما مر به من معاناة في سبيل التوفيق بين الواقع المتخلف والعصر المتقدم، في ظل فقر في التراث الموروث وثراء في معاصرة الغرب، فنراه يقول:" كم قرأت وقرأت، فكنت أتلون بما أقرأ، كأني دودة ضعيفة تتلون بلون الأرض التي تدب عليها وتسعى، فهي تصفر إن كانت تحبو في الرمال، وهي تخضر إذا كانت تزحف في المروج، كنت أقرأ الشكاك فأشك، ثم أقرأ للمؤمنين فأومن، هذا كتاب متشائم أطالعه ، فإذا أنا الساخط الناقم على حياتي ودنياي، وذلك كتاب متفائل أطالعه، فإذا أنا

الهاش الباش المرح الطروب، ولكن أراد لي الله خيراً، أفقت إلى نفسي، فوجدتها مضطربة هائمة يعصف بها الريح هنا وهناك، وهي في كل ذلك تعاني من القلق والهم ما تعاني"[١].

ولا شك أن هذه المتغيرات في فكر زكي نجيب محمود قد لعبت دورا كبيرا في التقييم الفكري والحكم عليه من قبل كثير من المفكرين، وقد تجاوز الأمر النقد بحيث وصل للنقض والتكفير، وما ذلك إلا للقراءة الجزئية لفكر مؤلفنا، أو التقليد للطاعنين في المفكر وعقيدته، وقد شجعهم على ذلك ضآلة فكر الرجل وقلة حصاده في تراثنا الأصيل في سنوات عمره الأولى، الأمر الذي جعلني أتابع الرجل في سنوات عمره وأسمه بما يغلب على ثقافته في هذه السنوات، محاولاً رسم خريطة فكرية تساعدنا في فهم مراحل حياته الفكرية، والتطور الحاصل لها، بغية التيسير على الباحثين عن فكر الرجل وحقيقته، نصفة للحق وأهله ، وإنصافاً للرجل وفكره ، وتصويبا للمتجنين على الرجل وعقيدته.

إن المتتبع بعمق لحياة زكي نجيب محمود يجد حياته يمكن تقسيمها تبعا لعقود عمره، ففي كل عقد كان يغلب عليه سمة معينة، تكشف مدى أصالة فكره من تقليده لغيره وتبعيته لهذا الغير هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذا مؤشر للتقلبات الفكرية التي مر بها مفكرنا الكبير، والتطور الذي لحق به.

ففي فترة الثلاثينيات كان يقتصر على عرض أفكار مع نسبتها لأصحابها لدرجة أنه كان يوقع في بعض مقالاته بأسماء مستعارة كما يتجلى ذلك في مقالاته في مجلة الرسالة، ولولا أنه اعترف في مؤلفاته

---

١ – قصة عقل ٣٠.

الأخرى بأسمائه المستعارة التي وقع بها في مجلة الرسالة ما علمت صاحب هذه المقالات.

وفي فترة الأربعينيات غلبت عليه سمة النقد للحياة المصرية، وبدأ يثق بنفسه أكثر، ويعلن عن نفسه بلا بجاحة ، ففي السابع عشر من يناير سنة ١٩٤٤م كتب- في عيد الهجرة- مقالاً بعنوان "هجرة الروح"(مجلة الرسالة) فكان بمثابة الإعلان عن بداية عهد جديد عهد لا يترك نفسه فيه نهباً لما يقوله الآخرون؛ بل يتابع الآخرين تحصيلاً وفهماً ونقداً ومناقشة، حتى يرسو لنفسه على رأي يكون رأيه هو، فقد أدرك أنه لا يقل عن معاصريه، بل إنه بدأ يتمرد على استغلال الكبار له بوضع اسمهم بجوار اسمه في عمل لم يقوموا به أصلاً، كما حصل في هذه الفترة على الدكتوراه من انجلترا وكانت رسالته بعنوان "الجبر الذاتي "وفي هذا المرحلة اختار لنفسه المذهب الفلسفي الذي أخذ يبشر به، وهو الوضعية المنطقية.

وفي الخمسينيات اتجه للتأليف الجامعي الذي كرسه لنشر مذهبه الفلسفي الذي تبناه في الأربعينيات وهو الفلسفة التحليلية التجريبية العلمية أو الوضعية المنطقية، وفي هذه الفترة ناله ما ناله من جراء تأليف كتابه "خرافة الميتافيزيقا "الذي اضطر لتغيير عنوانه دون مضمونه ليصبح عنوانه الجديد " موقف من الميتافيزيقا "، فقد اتهم الرجل بإنكار الغيبيات ومن يطالع الكتاب لا يجد علاقة بين مضمون الكتاب وتلك الاتهامات.

وفي الستينات صب كل اهتمامه على الأفكار التي شاعت في الحياة الثقافية شيوعاً غامضاً، فتناولها بالتحليل الذي يبين حقائقها، ومن ثم بعد هذا الكشف يترك لجمهور المثقفين الحرية في الأخذ والترك، وهذا الجانب التحليلي في حياته من أهم سمات فيلسوفنا الكبير، وفي هذه الفترة وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧م بدأ مفكرنا يسأل نفسه كيف يقلد من يقتله؟

كيف يسير خلف عدوه؟ هنا بدأ يبحث في تراثنا وفي أصالة فكرنا، بغية استخراج كنوزه ونثرها بين الناس، وقد كانت رحلته التدريسية لجامعة الكويت منحة ربانية أتاحت له فرصة الإغتراف من منهل مكتبتها العامرة بجواهر التراث ودرره، وقد اعتبر الدكتور حسن حنفي بعد الدكتور زكي نجيب محمود عن مكتبته وتمكينه من مكتبة الكويت التراثية أحد أسباب التحول الفكري لزكي نجيب محمود، وهذا وارد وإن لم يكن الأوحد[١]،وفيه طعن خفي في غلبة الأصالة على فكر الرجل.

أما في السبعينيات وما تلاها من الثمانينات فقد انصرف همه للبحث عن نقاط يلتقي فيها جوهر تراثنا بجوهر العصر الحاضر، بغية إيجاد صيغة تجمع الطرفين في وعاء ثقافي واحد، وليس مقصوده وضع ثقافتين في إناءين متجاورين، بل كان يهدف لصهرهما معا في بوتقة واحدة هي طريقنا للتقدم والرقي، وفي هذه الفترة أنتج لنا دره الثمينة المتمثلة في "أفكار ومواقف" و"والمعقول واللامعقول في تراثنا الفكري" و"رؤية إسلامية "و"قيم من التراث"...وهدفها الرئيس هو تحقيق الأصالة والمعاصرة، التي أراد فيلسوفنا بها لحياتنا الثقافية أن تكون منسوبة إلى جذورها التاريخية من جهة، ومتطورة مع ظروف عصرها من جهة أخرى.

وهذه القضية وهذا الهدف الذي سيطر على لبه، وشغل فكره، واستغرق عمره، قد اعتبره أم المسائل الثقافية، وهو القضية المصيرية نكون أولا نكون ولا أدل على ذلك من قوله: "إذا استعرضت حياتي الفكرية من أولها إلى آخرها، وجدت أنه ربما كانت قضية الجمع بين الأصالة الثقافية التي تضرب بجذورها إلى المقومات الأولية التي جعلت من العربي عربياً

١ –حوار الأجيال د/ حسن حنفي ص ٢٢٩.ط دار قباء ١٩٩٨م.

على طول التاريخ العربي، ومن المصري مصرياً بما قد كان قبل العروبة وبعدها، وبين المعاصرة التي تجعلنا جزءا من زماننا، لا بمجرد وجودنا الجسدي بل بنشاطنا الفكري كذلك، أقول إن قضية الجمع بين أصالتنا وضرورة معايشتنا لعصرنا، ربما كانت أهم ما تعرضت له من اهتمامات بالتفكير وبالكتابة، ثم ما هو أكثر من ذلك، فقد أصبحت على يقين من أن هذه المسألة هي أم المسائل الثقافية جميعاً، من أهمها من صفوة رجال الثقافة بيننا، فكأنما أزاح عن عاتقه العبء الذي بغيره يكون وجوده كعدم وجوده في حياتنا الراهنة، إذ هي حقاً القضية التي يصح أن نقول حيالها قولة هاملت في أزمته النفسية: أن أكون أو ألا أكون "[١]

وهذه العلاقات المتداخلة المتشابكة بيننا اليوم وبين حاضرنا وماضينا، بين أصالتنا وسعينا للمعاصرة، قد بلغت من التعقيد أحياناً ذلك الحد الذي لا ندري معه ماذا ندع وماذا نختار؟،بل ولا ندري كيف نختار ما نختاره؟ ولا كيف نهمل ما نهمله؟ وذلك لعدم اهتمام مفكرينا بهذه القضية من جهة، ومن جهة أخرى لأن مواقف حياتنا كثيرة ومنوعة وسريعة، وما يصلح لأحدها لا يصلح للآخر، وعلى ضوء هذه الأسئلة السابقة كان المشروع الفكري للدكتور زكي نجيب محمود هو محاولة جادة للجواب عنها، وريادة للباحثين لمن يريد التوفيق بين الأصالة والمعاصرة رفعة للأمة ومواكبة لعصرها دون التنازل عن هويتها، وكان هذا البحث هو خطوة تهدف كشف معالم هذا المشروع الذي يعالج ما آلت إليه حياتنا الفكرية من قرون خلت أعقبت عصر التقدم الحضاري الإسلامي.

---

١ – قصة عقل ٢٢٢.

المبحث الثاني :مفهوم الأصالة والمعاصرة في فكر زكي نجيب محمود

الأصالة في اللغة:

الأصالة: أصل الشيئ ما يبنى عليه غيره، فهو ما يفتقر إليه، ويرد إليه، ويستند عليه.. والقواعد أصل أساس البناء، وتدل على جذور الشيئ وسبقه، ويقال: إن النخيل بأرضنا لأصيل أي هو بها لا يزال باقياً، يدل (على وجوده المسبق عن مثليه والأصل أسفل كل شيء، فعلان أصيل الرأي، قد أصل رأيه أصالة).

وكل معاجم اللغة تخلص إلى أن أصل الشيئ جذره وأسفله وأساسه، ويقال على الشجر والبناء والرأي ، أي يقال على الفكر وغيره، فيقال: فكر أصيل أي له جذوره وأسبقيته، ويقال على البيت، أصله أي أساسه، ويقال على الشجر، أصله أي جذره، وبهذا يكون اللفظ مستوعباً للحس والمعنى .

الأصالة في الاصطلاح:

وقع خلاف بين اللغويين في تحديد المراد بمصطلح الأصالة، فهناك من يرى أن الأصالة تكون في الفكرة من حيث عناصرها ومكوناتها فلا تكون متأثرة بأي فكر سابق عليها في البنية أو المعالجة، هنا فقط تكون الفكرة مستحقة لصفة الأصالة، وعلى هذا الرأي فالجزم بأصالة فكرة معينة ونسبتها لأصحابها سيكون من باب الظن.

وهناك من يرى أن الأصالة تكون في المفكر الذي يأخذ الفكرة السابقة عليه ويبني عليها ويعيد صياغتها ومعالجتها، ويبتكر في تركيبها والنتائج التي يخلص إليها، وبهذا تأخذ الفكرة طابعاً شخصياً يدل على أحد بعينه، وإن كانت الفكرة نشأت على يد آخر ، وإن كان بعض عناصرها

ومفرداتها قديماً وسبق إليه ، ولكن البراعة العقلية في تنسيق وحسن استخدامها [١]. وهذا الرأي أقرب للواقع من سابقه.

المقصود بالأصالة في فكر زكي نجيب محمود

تتمثل الأصالة عنده في إحياء التراث ويعني به: "هو أن يخرج قارئه ودارسه بروح يستمدها مما قرأ أو درس، ليبثها في حناياه فإذا هو مصطنع لنظرة جديدة، من شأنها أن تعقد الأواصر بينه وبين السلف الذي أحيينا تراثه، حتى لو وقف من مضمون إرثه موقف الناقد أو المشكك...إننا في موقفنا من التراث، ينبغي أن نتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض، فندرسهما معاً، ولكن ندرس الأبيض ليحيا في سلوكنا، وندرس الأسود ليموت في ظلمته"[٢].

فالرجل باختصار شديد يبحث عن سبيل لثقافة نعيشها اليوم، بحيث تجتمع فيها ثقافتنا الموروثة مع ثقافة هذا العصر الذي نحياه ، شريطة ألا يأتي هذا الاجتماع على حساب أي من الثقافتين، وفي كل الحالات يضع الرجل نفسه في دائرة الاجتهاد التي تدور بين الصواب والخطأ، وإن كان يرجو لنفسه الصواب .

المقصود بالمعاصرة

المفهوم المباشر لمصطلح المعاصرة: يدور حول التزامن، وهو أن يتزامن شيئ مع شيئ أو مع أشياء في عصر واحد، لكن هذا المصطلح ارتبط بالتطور العلمي والفكري عند الغرب، وارتبط بالقوى الاقتصادية أكثر، فصار الغرب بجملته صورة التطور والتقدم، وصار كل ما يقدمه هو

١- انظر مختار الصحاح محمد بن ابي بكر الرازي ١٨، ١٩ ط ٣ الأميرية ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م ولسان العرب ابن منظور ج ١١/ ١٦.ط ١ دار صادر بيروت والتعريفات للجرجاني ص ٢٢ ط الحلبي،وانظر نظرات في الفلسفة الحديثة أد/ أحمد عبده حمودة الجمل ٣١٤،ط ١ ١٩٩١م .

٢ - أفكار ومواقف زكي نجيب محمود ص ٢١٣- ٢١٥ بتصرف ط٣ ١٩٨٧م دار الشروق

الحضارة، ولم يعرف هذا المصطلح عن قدماء المفكرين أو فلاسفة الإسلام ولكن "تنبه إليه المترجمون وشراح الفلسفة المسلمون العرب منذ القرن العاشر الميلادي،حين لفت نظرهم (تعاصر)أكثر من مفكر يوناني في زمن واحد ينتمون إلى بلدان وإلى اتجاهات مختلفة، وعنهم نقل أوائل الدارسين الغربيين"[١].

وهذا المصطلح وإن لم يكن معلوما في تراثنا فإن المأثور في تراثنا يحض على التقاط الحكمة أيا كان موطنها، وطلب التقدم في مظانه، وهذا من بدهيات ديننا، ومن المعلوم عند أسلافنا.

المقصود بالمعاصرة في فكر زكي نجيب محمود

ثقافة العصر عند زكي نجيب محمود التي نواجهها أو لا نواجهها، نقبلها أو نرفضها، أو نتخير منها نراه يقول: إنها " يقيناً ليست كل فكرة جرى بها قلم في صحيفة أو كتاب، بل هي مختارات من تلك الحصيلة الكبرى، وجدناها ذات صلة مباشرة بحياتنا ومصيرنا، فوقفنا عندها قبولا أو رفضاً أو تحليلا ينتهي بتعديل أو تبديل"[٢].

وهذا من البدهيات إذ لايعقل تقبل الأفكار الوافدة حلوها ومرها، صالحها وفاسدها، وإذا كان أسلافنا قد عرفوا المنهج واستخدموه في مواجهة الثقافات الوافدة عليهم، فأحرى بنا أن نقتدي بهم في مواجهة عصرنا بما فيه من أفكار تدور حول الأنشطة الناتجة عن العلم والفن والسياسة والاقتصاد وسائر النظم المختلفة التي تسير الحياة.

١- مصطلحات الفكر الحديث سامي خشبة ٢/٢٤٩- ٢٥٠ مكتبة السرة ط ١الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م .

٢ – ثقافتنا في مواجهة العصر ص ١٢

المتأمل في مفهوم مصطلحي الأصالة والمعاصرة كما تنطق بذلك معاجم اللغة، يجد بأدنى مشقة حكمة الله ساطعة، وعدله الشامل، ولطفه بالبشر فلم يجعل لأمة فضل على أمة إلا بالتقوى، فإذا فتشت عن الأصالة والمعاصرة عند كل أمة ستكتشف أن الأيام دول،وأن أصيل اليوم وافد الأمس، ووافد الأمس أصيل اليوم، ومعاصر اليوم كان أصيل الأمس، وأصيل اليوم كان معاصر الأمس ..فعند التحقيق سيكتشف الجميع أن الكمال لله وحده .

وإذا كانت مشكلة الدكتور زكي نجيب محمود التي كرس حياته لمعالجتها هي مشكلة الأصالة والمعاصرة، فإنه وهو الفيلسوف التحليلي المعني بتحليل المصطلحات وتحديد المقصود بها، لم يكن ليتحدث عن الأصالة والمعاصرة دون بيان المقصود بهذه المصطلحات، فنراه يعرف الأصالة والمعاصرة بألفاظ قليلة ودقيقة، في قوله الذي يتحدث فيه عن نفسه بضمير الغائب: "وأما الأصالة فقد أراد بها تلك الجوانب الثقافية التي نبتت أساساً في تربة الوطن، وابتدعتها عقولنا نحن، ومشاعرنا نحن، وقرائحنا نحن ابتداعاً، ومن هذا الأصيل وذلك المنقول المشتول يجب أن تنسج حياتنا الجديدة لحمة وسدى"[١].

فالأصالة عنده تتمثل في المجالات الثقافية التي نبتت في بيئتنا وتربتنا من إبداع عقولنا ومشاعرنا، وأما المعاصرة فتتمثل في الوافد الجديد الذي نختاره ونزرعه في بيئتنا وتربتنا، وهذا التعريف يتفق وما شملته المعاجم اللغوية .

---

١ – حصاد السنين ص ٢٧.

وقد شغلت هذه القضية مفكرنا الكبير منذ باكورة شبابه قبل أن تكتمل الصورة لهذه القضية كما ستبين الصفحات القادمة، ولكن بحسبه أن شغله الشاغل كان يتمثل في تغيير المجتمع من حوله، والسعي في نقل أمته من التخلف للتقدم، ومن الرجعية للتقدم، كيف لا وهو المثقف ليس فقط بل إنه المثقف أأثوري ، وقد أشار لذلك فقال : "كان صاحبنا منذ أوائل شبابه طلعة(بضم الطاء وفتح اللام)يرى، ويسمع، ويقرأ، فضلاً عن دراسته النظامية، وقد لحظ في نفسه منذ تلك السنين الباكرة، إقبالاً شديداً على الأفكار التي من شأنها أن تغير من حياة الناس، لتنقلها من قديم إلى جديد، ونفوراً من الأفكار التي تعمل على ركود الحياة وجمودها، وقد تنبه منذ ذلك العهد البعيد، إلى أن الفكر–بل والثقافة كلها بجميع اطرافها–ليس ترفاً يلهو به صاحبه ليزجي به ساعات الفراغ، وليلهي معه الناس"[١] .

وبهذا يظهر لنا أن قضية الأصالة والمعاصرة: لدى الدكتور زكي نجيب محمود هي أخطر قضية ثقافية وفكرية يمكن أن يعايشها عالمنا العربي المعاصر بدليل ما آلت إليه حياتنا الفكرية طيلة قرون كان أبرز سماتها هو الجهل والخرافة الراجع لطبيعة الفكر الذي ساد آنذاك كأثر من آثار البعد عن صحيح الدين، ومن هنا فهذه القضية هي المحور الأساسي الذي شيد الدكتور زكي نجيب محمود عليه مشروعه الفكري، وقضيته التي عاش من أجلها، ونهضته التي بناها، ودعوته التي بشر بها، وهمه الذي طرد النوم من مقلتيه، كيف لا؟؟ .

وقضية الأصالة والمعاصرة هي القضية الممثلة للحظة تعيشها أمة تعرقلت خطاها بين الخلف والأمام، تزيلت الركب بعد أن قادته قروناً، ولعل

١– حصاد السنين ص ٢٠ .

مصدر بروز تلك القضية الفكرية بهذا الوضوح عند مفكرنا الراحل تلك التحديات التي طرحتها الحضارة المعاصرة على الفكر العربي والكاشفة عن أننا لم نتبين بعد حقيقة هذه الحضارة بدليل تباين وجهات النظر المشيرة إلى نوع من التخبط الفكري في كل ما ينسب إلى هذه الحضارة.

ولعل هذا المقصود من قوله:"إذن كانت مشكلتنا هي التخلف الحضاري، هكذا رآها صاحبنا عندئذ، وكان"الفرض "المفترض لحلها، هو أن نأخذ بجانب "العلم" ولواحقه،في صورته التقنية الجديدة،على أن تظل لنا تلك الجوانب من ثقافتنا، التي نراها ضرورية للإبقاء على هويتنا القومية والوطنية،ذلك هو الموقف بكل بساطة ووضوح،ولقد صاغ صاحبنا فيما بعد هذا الموقف البسيط الواضح في عبارة "الأصالة والمعاصرة" فهو يريد لوطنه أن يعاصر الحضارة القائمة،معاصرة لا يكفيها أن تشتري معالم العصر من أصحابها بل لا بد أن تضيف المشاركة الفعلية في صنعها وفي تجددها وتقدمها المستمرين. "[١].

فالتغيير الذي ينشده زكي نجيب محمود تبلور فيما بعد في قضية الأصالة والمعاصرة، الذي يعترف هو بأنه لم يكن أول من عالج هذه القضية بالبحث والدراسة وذلك في قوله:"وربما جرت تلك العبارة نفسها"الأصالة والمعاصرة"على قلم قبل قلمه ولسان قبل لسانه، لكن اليقين المؤكد هو أن أحدا آخر لم يبذل ما بذله من جهد لترسيخ هذه القاعدة، ولم يبلغ أحد من سعة التحليل لما ينبغي أن يؤخذ به ليتحقق لنا إدراك معناها إدراكاً مشبعاً بتفصيلاته ودقائقه ، مثل ما بلغه هو من تحليل مستفيض."[٢].

١- حصاد السنين ١٢٦.

٢-حصاد السنين ١٢٦، ١٢٧

وهذا كلام صحيح فعناية الدكتور زكي نجيب بقضية الأصالة والمعاصرة يدركها بيسر من يطالع مؤلفاته،تلك المؤلفات التي حاولت جاهدة إيجاد التوازن الثقافي المنشود الذي يصون الهوية العربية الإسلامية حتى لا تنجرف مع تيار الفكر الوافد المنقول، وقد سبقه إلى ذلك علماء أفذاذ قاوموا التغريب وحافظوا على الهوية والأصالة في وقت عمل المحتل على فرض هويته ومحو أصالة تاريخنا وثقافتنا، وقد أشاد بهؤلاء زكي نجيب محمود فقال عن هؤلاء الأفراد إنهم : "عرفوا كيف يكتبون بأقلام عربية قوية رصينة، مادة عربية وإسلامية أصيلة،كالذي عند مصطفى صادق الرافعي، وأحمد حسن الزيات، والشيخ عبد العزيز البشري وغيرهم في هذه الدوامة الفكرية، ووسط إعصار من رياح التجديد والتغيير، وقف صاحبنا في شبابه الطموح، وقفة من أراد أن يلتهم الأضداد جميعاً،لعله يحيط بعصره من يمينه وشماله ،لكنه آخر الأمر قد أمسك بطرف الخيط الذي يهديه على الطريق"[١].

وهكذا تلاطمت الأمواج أمام مفكرنا إزاء الوافد المعاصر الجديد، ومزاحمته للأصيل التراثي، فهناك من رفضها بإطلاق مكتفياً بتراثنا الأصيل، وهناك في الجهة المقابلة من يقبل كل ما يأتي من الغرب ويحاول دفن ما بقي من تراثنا ، وهناك من جمع بين الحسنيين وإلى هذا الرأي انتهى الجهاد الفكري للدكتور زكي نجيب محمود بعد أن عاش مع الموقف الثاني الرافض للتراث الذي أنتجه مفكروا المسلمين شوطا ليس بالقليل، وأنا أعنى بالتحديد ما الذي كان يرفضه زكي نجيب محمود من التراث العربي أو الإسلامي، باعتباره انتاجاً فكريا لبشر ليسوا من العصمة في شيئ، ولا

١- حصاد السنين ٣١.

صحة مطلقاً لما يتهم به الرجل من إنكاره لثوابت الدين أو عقائده في فترات حياته، وهذا ما برهنت عليه في مؤلفات أخرى .

من ثم كان السؤال الجوهري الذي كانت حياة زكي نجيب محمود ومؤلفاته هي المجيب عنه هو: كيف السبيل إلى ثقافة نعيشها اليوم ليس هذا فحسب؛ بل نعيشها بحيث تجتمع فيها ثقافتنا الموروثة مع ثقافة العصر الذي نحياه شريطة ألا يأتي هذا الاجتماع تجاوراً بين متنافرين لا نزداد من الجمع بينهما إلا بعداً ،بل يأتي تضافراً تسبح فيه خيوط الموروث مع خيوط العصر؟

وحتمت الإجابة على ذلك السؤال–التي استغرقت معظم حياة مفكرنا–ضرورة الاعتراف بمجموعة من الثوابث أولها: أن الفكر العربي يعايش مأزقاً حضارياً سحيقاً مقارنة بالفكر الأوروبي والغربي المعاصر، وهذه الحقيقة يدركها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد خاصة إذا هاجر وعاش في العالم المتحضر.

فقد أصبحت الهوة عميقة في فكرنا العربي بين الماضي والحاضر، من ثم كانت ضرورة تجديد الفكر العربي تجديد مناهج التفكير عند العرب، بإحداث تغييرات جذرية في بنية العقل العربي ذاته باعتبارها ضرورة يقتضيها منطق التطور مستهدفاً أن يكون لفكرنا العربي في تأزماته وتوعكاته طبيعة ثنائية في مركب واحد يجمع بين الهوية الثقافية الأصيلة والخصوصية التاريخية مع الاحتفاظ بطبيعة الآلية الجديدة للفكر الغربي.

وهذا ما عاني في سبيل تحقيقة زكي نجيب محمود كل ما أصابه دون كلل أو فتور،وأرى أن المفكر المثالي الذي يحلم بتكوين جيل على شاكلته الدكتور زكي نجيب محمود هو العارف بالله سيدي محمد عبد الله دراز فهو خير من يمثل الأصالة والمعاصرة في هذا العصر الذي

نعيشه،لكن يبدو أن عين زكي نجيب محمود لم تقع على درر العلامة محمد عبد الله دراز فهو خير من تمثل المنهج الغربي في تفكيره الذي استخرج به دررا من كنوز القرآن والسنة والتراث،وفي الوقت نفسه كان قصر المسافر على زكي نجيب محمود في الوصول لهذا المنهج.

وقد لخص مفكرنا الكبير رحلته الثقافية التنويرية بالمعنى الإيجابي لمصطلح التنوير في هذا السؤال الذي يحدد به معالم ذاتيتنا وهويتنا التي إذا حافظنا عليها فنحن على أصالتنا وإذا فرطنا فيها فقد ضاعت أصالتنا وارتمينا في أحضان المعاصرة، ولهثنا خلفها، وفيٍ هذه الحالة تكون الخسارة المطلقة، فلا بأصالتنا احتفظنا ولا بعصرنا لحقنا، وهو يلخص رحلته في حل مشكلة الجمع بين الأصالة والمعاصرة من عقيدة راسخها تدور حول إله خالق وعالم مخلوق، إله معبود وإنسان عبد لله سيد لكل ما سواه، ومن نقطة الانطلاق ينطلق مشروعه الفكري واجتهاداته العقلية.

وفي هذا الاطار نفهم قوله:"من نحن على الأصالة ؟ما هي مقوماتنا التي إذا تحققت في فرد أو في مجموع،قلنا عنه إنه عربي أصيل من الناحية الثقافية؟...وأول ما يرد إلى خاطري من الخصائص المميزة للوقفة العربية،عقيدة راسخة عند العربي بمستويين من الوجود، بحيث يستحيل عليه أن يخلط بينهما في التصور:فهنالك الذات الخالقة، ثم هنالك عالم الكائنات المخلوقة لتلك الذات،وبين هذه الكائنات المخلوقة كائن أراد خالقه أن يتميز ليحمل على الدنيا أمانة أؤتمن على حملها ونشرها، وذلك هو الإنسان،وفي هذا الإطار العام تتحدد وجهة النظر العربية الأصيلة، ومن هذا الأصل الأول تتفرع فروع "[١].

١- قصة عقل ٢٤٠.

وللإجابة عن هذا السؤال كان الباعث لكتابة المبحث القادم بمشيئة الله –تعالى–التي تثبت أن الأصالة ليست تجمدا محضا، كما أن المعاصرة ليست تجددا محضا، أو تبديداً خالصاً،وما علينا سوى أن نكون على بينة بحقيقة أنفسنا كما تتجلى في تراثنا أو كما يصورها تاريخنا، وفي الوقت نفسه على بينة بجوهر عصرنا الذي نعيش فيه ويعيش فينا، لنخرج بصيغة جامعة تحفظ لنا الأولى ونعيش بها الثانية .

المبحث الثالث :معالم الجمع بين الأصالة والمعاصرة في فكر زكي نجيب محمود

قضت سنة الله تعالى في خلقه أن يولد الدكتور زكي نجيب محمود والكرة علينا لا لنا،التقدم من نصيب الآخر والتخلف حليفنا،فرأى أن الإبداع في هذا العصرهم من أبناء أوربا وأمريكا،كما أن التقليد من أبناء أمتنا،فهناك ولد العصر بعلومه وتقنياته وفنونه ونظمه وآدابه،حتى أصبح المعيار في الأخذ بالحضارة والمعاصرة يقاس بمقدار القرب أو البعد من الطراز الغربي القائم، هكذا رأى صاحبنا دون حذر أو حيطة في مستهل حياته،وكان الأمر في ذلك يبدو أمام ذهنه وكأنه من البديهيات التي لا حاجة بها إلى مزيد من تأمل وبحث،وقد كان يكفيه في دعم موقفه وجود القيادة والسيطرة للغرب،والتبعية والتقليد في الشرق إن نجحنا حتى في التقليد.

وقد جذبته المعاصرة الوافدة جذباً شديداً بحيث أطاحت في باكورة حياته العلمية بالأصالة الموروثة،فقد كان يقول وبتعصب شديد للمعاصرة،وجهل كبير بالتراث الموروث:"إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً،وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارةً ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم،بل إني تمنيت عندئذ أن نأكل كما يأكلون ونجد كما يجدون ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون على ظن مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ،فإما أن نقبلها من أصحابها–وأصحابها اليوم هم أبناء أوربا وأمريكا بلا نزاع–وإما أن نرفضها،وليس في الأمر خيار بحيث ننتقي جانباً ونترك جانباً كما دعا إلى ذلك الداعون في اعتدال،بدأت بتعصب شديد لهذه الإجابة السهلة،وربما كان دافعي الخبيء إليها هو إلمامي بشيء من ثقافة أوربا وأمريكا وجهلي بالتراث العربي جهلاً كاد أن يكون تاماً،والناس– كما قيل بحق– أعداء ما جهلوا"[١].

---

١ – تجديد الفكر العربي ص١٣.

وكما ترى عزيزي القارئ فعبارات الندم ظاهرة على هذا الموقف المتسرع المتسم بالجهل والتعصب على حد قوله،كما يجب التماس العذر له بالجهل في بعض المسائل التي اتهمه بالكفر بها بعض المتسرعين[١]،ويزيد اعترافه بياناً فيصرح بخطئه فيقول:"«تسألني:وماذا نحن صانعون بآدابنا وفنوننا ومعارفنا التقليدية كلها،والتي تحتكر عندنا اسم «الثقافة»؟فأجيبك بأنها مادة للتسلية في ساعات الفراغ،ولم أعد أقول . كما قلت مراراً مقلداً هيوم وجارياً مجراه . لم أعد أقول إنها خليقة بأن يقذف بها في النار،وحسبي هذا القدر من الاعتدال ابتغاء الوصل بين جديد وقديم»"[٢]

فها هو يعترف مراراً وتكراراً أنه لم يبدأ حياته الفكرية بالرأي الذي تحول إليه منذ أواسط الستينيات،فقد قال لقد" لبثت أعواماً وأعواماً لا أرى للحياة القومية المزدهرة إلا صورة واحدة، هي صورة الحياة كما يحياها من أبدعوا حضارة العصر"[٣].وقد تم اجتزاء هذه الكلمات من سياقها حتى تشهد

---

١ –زكي نجيب محمود وهو مفكر عربي مصري، تبع الفلسفة الوضعية الملحدة، وتبنى أفكارها.. وألف كتاب المنطق الوضعي. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ ٨١١/٢.. عودة الحجاب المؤلف: محمد أحمد إسماعيل المقدم جـ ١: دار طيبة (توزيع دار الصفوة) – الطبعة العاشرة، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧م جـ ٢: دار ابن الجوزي، القاهرة – الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.جـ٣: دار القمة، دار الإيمان (الإسكندرية) – الطبعة الثانية، ٢٠٠٤ م ٢٣٨/١. وَا مُحَمَّدَاهُ {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} المؤلف: أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني الناشر: دار العفاني، مصر
الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م.٣١٦/٢.

٢ – تجديد الفكر العربي ٢٤١.

٣ – قصة عقل ٢٢٢.

لأعدائه بصحة اتهاماتهم، وأزعم لو لم ترد هذه الاعترافات من الرجل ما استطاع خصومه استخراج معناها من مؤلفاته.

فموقفه المتطرف جعله يضع التراث في المكان اللائق به من وجهة نظره هو النار، ولما تطور فكره في اتجاه الاعتدال وضع التراث على الهامش باعتباره مادة للتسلية في ساعات الفراغ، وهذا حينئذ هو مستهل جمعه بين الأصالة والمعاصرة، الذي يلوم نفسه عليه مراراً، كما يظهر حين يروي قصة تطوره العقلي، بعد عودته من رحلة الدكتوراه وفي دعوته للأخذ من ثقافة الغرب صانع الحضارة أنه كان بعيدا عن الاعتدال بدرجة كبيرة بحيث أوغل في التطرف، وفي ذلك يقول:"حين دعوت إلى الأخذ بثقافة الغرب–والغرب هو"العصر "لأنه هو صانع حضارة عصرنا–كنت في تلك الدعوة على كثير من التطرف،لأنني عندئذ نظرت إلى الأمر من جانب واحد،هو جانب "العصرية"التي لا بد فيها في إنسان اليوم،لكنني أهملت الجانب الآخر الذي لا بد منه كذلك حفاظاً من أي إنسان معاصر على هويته الخاصة التي صنعها تاريخه، فجاءت نظرتي إلى"الثقافة "المنشودة نظرة مبتورة، تثبت جانباً وتهمل جانباً آخر"[١].

ولم تكن نفسه في تلك اللحظات المتفرقة على رأي واحد ولا على شعور واحد،فمرة كانت تظن أنها قد رأت قبساً من نور يعين على الخروج من المأزق إلى حيث يبتغي،ومرة أخرى كانت تنظر فإذا الطريق أمامها مسدود، وكان في كل مرة أطاعها وأخلص لها،فما كان يبتغي سوى رفعة أمته ونهضتها، ويدفع في طريق تحقيق الرؤية إلا إذا تبين له انحرافها:"ففي المرة الأولى كنت أبشر بأن السبيل إلى ثقافة عربية معاصرة قد انفتحت

١ – قصة عقل ٦٢

أمامنا أبوابه ونوافذه، وأننا إذا فعلنا كذا وكذا،كانت لنا بذلك فلسفة عربية وأدب عربي وفن عربي وأخلاق عربية وسياسة عربية ونظرة عربية تميزنا ونعاصر بها الآخرين ممن يعيشون معنا في عالم واحد وتعترضهم معنا مشكلات واحدة، وفي المرة الثانية يأخذني اليأس فأكتب أو أتكلم لأقول ألا مخرج من الأزمة، وأننا بين طرفين متناقضين، ولا حل أمامنا إلا أن نبتر طرفاً منهما بتراً ليبقى لنا الطرف الآخر خالصاً: فإما أن نتقوقع "في ثقافة عربية ذهب أوانها،وإما أن ننضو عنا هذا الثوب العتيق في غير أسف، لنقد لأنفسنا ثوباً جديداً من القماش الجديد هكذا تعاورني أمل ويأس"[١]

وما ذلك إلا لغياب الثقافة الإسلامية عنه من جهة،ولأنه لم يقع على المفتاح الذي يفتح به الأبواب المغلقة من جهة أخرى؛ولم يعثر على المنهج الملائم للجمع بين الأصالة والمعاصرة في ذلك الوقت،ومن جهة ثالثة اختلاف النخبة في عصره وتضارب آرائها حول طريق النهضة وبناء الأمة.

فلم تكن مشكلة الجمع بين الأصالة والمعاصرة هذه مشكلته وحده، أو هو الرأس فيها والطليعة في حلها، فقد صور لنا زكي نجيب محمود اختلاف رواد الثقافة في مصر حول سبل النهضة التي يجب أن تسلكها الأمة، وذلك في قوله: "منهم من يقبل الغرب كله والتراث كله ويحسب أن الجمع بينهما أمر ممكن، كما صنع العقاد، ومنهم من يقبل الغرب كله وبعض التراث دون بعض، كما صنع طه حسين، ومنهم من يقبل التراث كله وبعض الغرب دون بعض،كما صنع محمد عبده، ومنهم من يجري تعديلاً في التراث وفي الغرب معاً، كما صنع أحمد أمين وتوفيق الحكيم،ومنهم من يكاد يرفض الجانبين معاً،فلا هو قد تعلم شيئاً من التراث

---

١ – تجديد الفكر العربي ص ١٥.

العربي ليعرفه،ولا هو يرضى بقبول الثقافة الغربية خشية أن يقال عنه إنه من توابع المستعمرين وأمثال هؤلاء تراهم هذه الأيام بكثرة بين كتاب الشعر والقصة والمسرحية،ومن هنا سر سطحيتهم، ولكن من هنا أيضاً سر الإبداع الذي يحاولونه ولو بدرجات يسيرة"[١].

وقد لخص زكي نجيب محمود هذا التشتت الفكري، واختلاف المنابع، وتعدد المشارب، وتباين القبلة بين المفكرين في قوله : " هكذا قضينا أعوام العقدين الثالث والرابع من هذا القرن، نمد ذراعاً إلى تراثنا نحييه، وذراعاً إلى الثقافة الأوربية فننقلها"[٢].

وإذا كان الأصل عنده في هذه الفترة المعاصرة،ومصير الأصالة إن لم يلق في النار فعليه أن يكتفي بوضعه على الهامش كوسيلة للتسلية،وإذا كان هذا حال النخبة إزاء هذه المشكلة،فإنه في لحظة ما خاطفة،قرر التضحية بالمعاصرة في سبيل الأصالة،فقد تغير موقفه مع تطور الحركة القومية وصدمته بالهزائم المتتالية للأمة،فما دام عدونا الألد هو نفسه صاحب الحضارة التي توصف بأنها معاصرة،فلعنة الله على ما يأتي من أعدائنا،فنراه يقول:"فلا مناص من نبذه ونبذها معاً،وأخذت أنظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع عربي خالص،يحفظ لنا سماتنا ويرد عنا ما عساه أن يجرفنا في تياره فإذا نحن خبرُ من أخبار التاريخ،مضى زمانه ولم يبق منه إلا ذكراه:لكنني حين أخذت أتعاطف مع هذه النظرة العربية الخالصة،كنت إزاءها بلا حول؛فهذا مجال لم يكن لي فيه نصيب يذكر"[٣].

---

١ – تجديد الفكر العربي ٢٩٢

٢ – في حياتنا العقليةد/ زكي نجيب محمود ص ١٦ ط ٣ ١٩٨٩م .ط دار الشروق

٣ – تجديد الفكر العربي ص ١٣.

وفي لحظة تمعنه وتدقيقه في هذا الموقف المضحي بالمعاصرة لحساب الأصالة،قابلته صعوبات منها ضآلة بضاعته من التراث الممثل للأصالة،وتقدم الأمم وتقدمنا نحو الخلف،فاتخذ سبيله في الجمع بين الأصالة والمعاصرة سربا،وما فعل ذلك عن أمره ولكنه توفيق من ربه.

قد يبدو للوهلة الأولى عند زكي نجيب محمود أو غيره ممن عالج هذه المشكلة،أن ثمة تناقضاً أو ما يشبه التناقض بين الحدين بزعم أنه إذا كان عربياً صرفاً وصحيحاً،اقتضى ذلك منه أن يغوص في تراث العرب الأقدمين حتى لا يدع مجالاً لجديد. وإن من أبناء الأمة العربية اليوم من غاصوا هذا الغوص الذي لم يبق لهم من عصرهم ذرَة هواء يتنفسونها. وأما إذا كان معاصراً صرفاً صحيحاً، كان محتوما عليه أن يغرق إلى أذنيه في هذا العصر بلغته وبعلومه وآدابه وفنونه وطرائق عيشه،حتى لا تبقى أمامه بقية ينفقها في استعادة شيء من ثقافة العرب الأقدمين،نعم قد يبدو للوهلة الأولى أن بين العربية والمعاصرة تناقضاً أو ما يشبه التناقض،ولذلك يجب السؤال الذي يلتمس طريقاً يجمع الطرفين في مركّب واحد،وكأنما هو سؤال يطلب أن تجتمع مع الماء جذوة نارة،فهل بين الطرفين مثل هذا التناقض حقاً؟ هذا ما سيجيب عنه زكي نجيب محمود بتصور جديد للعربي الجديد،الذي ينظر لتراثه الذي ورثه بمنهج واضح ينير الطريق فيه.

وكان من أهم معالم هذا المنهج:عدم التنكر للماضي،والتنكر ضرب من الجنون،ليس كل الماضي مقدساً،بل نأخذ من الماضي ما يخدم الحاضر،وهكذا الماضي بين الإنكار والتقديس أو التراث بين الحقيقة والوهم يدور الجمع بين الأصالة والمعاصرة في فكر زكي نجيب محمود.

وهذا المنهج يتلخص في ثلاث نقاط:"

أولاً:وقبل كل شيء آخر،يجب أن يكون واضحاً بأن التنكر للماضي في جملته إنما هو من تخليط المجانين،فلا تعرف الدنيا إنساناً واحداً يستطيع التنكر لماضيه حتى إذا أراد ذلك،فهو مضطر إلى أن يتكلم لغة هبطت إليه من ذلك الماضي،ويعتقد في دين نقل إليه عن مصادره جيلاً يأخذ عن جيل،ويكتب بطريقة يتعلمها ولم يكن هو صانعها،ويبني أسرته بما يسودها من علاقات داخلية بين أفرادها على أسس تكونت وتطورت قبل أن يولد،وهكذا إذن فلنصم آذاننا عما يقال عن إرادة ظهورنا للماضي على هذه الصورة الرعناء.

وثانياً:تجيء نظرة مضادة يريد لنا أصحابها أن نحيط بكل ما ورثناه بهالات التقديس،وهي نظرة إن تكن أقل جنوناً من سابقتها،فهي مع ذلك في دائرة الجنون،لأن الله سبحانه وتعالى حين خلقنا في زماننا هذا لم يخلقنا عبثاً،مكتفياً منا بأن نحاكي نموذج أسلافنا دون أن نضيف ما يثبت وجودنا....

وثالثاً:من المقدمتين السابقتين تلزم نتيجة هادية،وهي أن نأخذ من ماضينا ما يخدم حاضرنا،فلا إنكار له،ولا هو تقديس،بل الأمر أمر حياة لا بد لها من مواجهة ظروفها الراهنة،ثم لا بد لها في الوقت نفسه من أن تجعل نفسها حلقة في سلسلة الحلقات التي هي تاريخها،وإلا حكمت على نفسها،بأن تكون حاضراً لقيطاً مجهول الأبوين وبهذا اللقاء بين"عاطفة الانتماء من جهة،و"عقلانية "المواجهة لمشكلات العصر،نشأ لصاحبنا خيط فكري رابع"[١].

١ – حصاد السنين ٣٢٥.

هكذا أخذ زكي نجيب محمود يعب صحائف التراث عباً سريعاً،والسؤال ملء سمعه وبصره وقلبه:كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا،بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل في نظرة واحدة،وهنا تكمن مشكلته التي كرس حياته لحلها.

وقد عبر عن هذه المشكلة في قوله:"كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه،وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها؟إنه لمحال أن يكون الطريق إلى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والأصيل في تجاور،بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا فنقول:هذا هو شكسبير قائم إلى جوار أبي العلاء،فكيف إذن يكون الطريق؟"[١].

هنا تظهر أهمية المنهج الذي استخدمه زكي نجيب محمود في سبيل الجمع بين الأصالة والمعاصرة،بنظرة موحدة مفتاحها هو رؤية جديدة للثقافة العربية،بين طبيعة تلك الثقافة وجوهرها الأصيل والذي لا يترك من تراثنا وما ينبغي أن يترك وإلا ضعنا والذي ظل محوراً لها على امتداد الزمن، تتبدل حوله المتغيرات التاريخية وتتحول،وهو في جوهر طبيعته ثابت ذلك الثبات النسبي الذي يتلاءم مع جريان الزمن.

فإذا كان السؤال المطروح من قبل زكي نجيب محمود هو:كيف السبيل إلى دمج التراث العربي القديم في حياتنا المعاصرة،لتكون لنا حياة عربية أصيلة ومعاصرة في آن؟ كانت طريقة الإجابة السديدة تتمثل في البحث عن طرائق السلوك التي يمكن نقلها عن الأسلاف العرب بحيث لا

---

١ – تجديد الفكر العربي ص٦

تتعارض مع طرائق السلوك التي استلزمها العلم المعاصر والمشكلات المعاصرة، فالمشكلة إذا تكمن في منهج التفكير .

وذلك في قوله:"فماذا عسانا أن نأخذ من تراث الأقدمين؟الجواب هو :نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاُ عملياً،فيضاف إلى الطرائق الجديدة المستحدثة؛فكل طريقة للعمل اصطنعها الأقدمون وجاءت طريقة جديدة أنجح منها،كان لا بد من اطراح الطريقة ووضعها على رف الماضي الذي لا يعنى به المؤرخون؛بعبارة أخرى:إن الثقافة – ثقافة الأقدمين أو المعاصرين–هي طرائق عيش،فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن،أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث؛وأما ما لا ينفع نفعاً عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين،وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة إلى ثقافة معاصرينا من أبناء أوربا وأمريكا"[١]

لقد أدرك زكي نجيب محمود في تلك الحقبة من السنين سر النهضة العلمية التي نشأت في أوربا إبان القرن السادس عشر،فتولد عنها العلم الحديث والحضارة الحديثة بأسرها وهو نفسه السر الذي لم ينكشف للمسلمين حتى اليوم انكشافاً كاملاً،فتلكأت بنا النهضة ولبثنا نواصل شيئاً من عصورنا الوسطى في عصرنا الحديث،وما ذلك السر العظيم:"إلا منهج جديد يحل محل منهج قديم،فبدل أن نقيم حلول مشكلاتنا على أقوال نستخرجها من الكتب القديمة،نقيمها على تحليلات دقيقة لعناصر المشكلات المراد حلها،لكي نصل إلى الطريقة الفعالة التي تحلها بعبارة أخرى،بدل الاكتفاء بقراءة الكتب القديمة على أنها مشتملة على الحق كله،يجب أن نضيف إليها قراءة"الطبيعة"أي قراءة الموقف الواقعي الذي يتصدى

١ – تجديد الفكر العربي ص ١٨.

لدراسته،فمحور النهضة العلمية في أوربا هو استبدالها بالمنهج القياسي الذي وضع أرسطو تفصيلاته،منهجاً استقرائيا جديدا كان فرنسيس بيكون أول من وضع له المبادئ والقواعد"[١].ولو دقق زكي نجيب محمود لبحث عن أصول المنهج الغربي الحديث في التراث الإسلامي.

وحتى لا يحمل هذا الكلام على عواهنه،فكان من معالم الرؤية الواضحة التي عاد بها زكي نجيب محمود من رحلته الفكرية،وعزمه أن يجعلها برنامج عمل يهتدي به في نشاطه الفكري:"أن ما قد تقدم به الغرب يمكن أن نتقدم به نحن،على مستوى الوطن المصري،وعلى مستوى الأمة العربية في آن واحد،دون أن تضيع منا الهوية،هويتنا التي لازمتنا فميزتنا على امتداد التاريخ "[٢]

تأمل عزيزي القارئ كلمات هذا المفكر الكبير الذي كان يدعو لاختراق الآفاق ،لكنه في الوقت نفسه حذر من ضياع ركنيين أساسيين هما العقيدة الدينية واللغة العربية وفي ذلك يقول:"إن عقيدة أسلافنا لم تنقص مثقال ذرة،حين اخترقوا الآفاق ليعبوا من حضارة الهند ومن حضارة اليونان وغيرهما،وكذلك بالنسبة لعقيدتنا إذا نحن فتحنا صدورنا اليوم لحضارة عصرنا وثقافته،وأما اللغة العربية فلا بد لها– لكي تظل حية– أن تملأ أوعيتها من ثقافات العصر،وبمقدار ما يجري في اللغة من علوم العصر ومعارفه،يكون لنا الحق في الانتماء إليه مع سائر أبنائه"[٣].

هكذا أراد فيلسوفنا لحياتنا الثقافية أن تكون منسوبة إلى جذورها التاريخية من جهة،ومتطورة مع ظروف عصرها من جهة أخرى،

---

١ – قصة عقل ٤٦.

٢ – حصاد السنين ١٢ .

٣ – قصة عقل ٨٢ وانظر مجتمع جديد أو الكارثة ٢٩٤.

وماله لا يطالب أمته بمواكبة العلم وعصره؟ أفي الدين ما يمنع ذلك؟أليس الدين يعتبر طلب العلم فريضة؟ تأمل قوله:"...فما الذي يمنع العربي أن يدخل عصره مقتحما ميادينه العلمية وغير العلمية،مما قد ثبت نفعه في عملية التقدم الحضاري؟إن عقيدته الدينية تحضه حضاً على أن يتفحص ظواهر الكون المحيطة به تفحص من يريد الكشف عن سرها وليس تفحص من يجلس بين جدران بيته يحملق بناظريه في الخلاء"[١].

وفي سبيل تحقيق هذا المنهج جعل خطته أن يدرس دراسة متأنية متأملة لعيون التراث العربي،ويجمع النصوص التي يراها دالة على روح الثقافة العربية إبان ازدهار العقل العربي وأصالة مبدعاته بعد نزول الإسلام،وخير شاهد على ذلك كتابه الماتع"المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري" فقد وقف في هذا الكتاب مع السلف في نظراتهم العقلية وفي شطحاتهم اللاعقلية كليهما،وبهذا النشاط الذي لم يفتر،حقق الكاتب ما أراد تحقيقه لنفسه وهو:" أن ترتسم له لوحة متماسكة لسيرة الثقافة العربية،بعد أن كانت حصيلته الغزيرة من تلك الثقافة،مفرقة في أشتات لا يرتبط بعضها ببعض ارتباط مكان وزمان وعلاقات تضم جانباً إلى جانب وإنه ليتعذر على حامل الشتات المفرقة–مهما كثرت تفصيلاتها–أن يكون لنفسه"وجهة نظر"يتوحد فيها المشهد،ويصبح في مقدور المشاهد أن يكون له رأي فيما يرى"[٢].

---

١ – **حصاد السنين ١٤.وقد أفرد لهذه المسألة كتابه القيم "رؤية إسلامية".**

٢ – حصاد السنين ١٦،وراجع المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ط دار الشروق ط ٢ ١٩٧٨م ،وراجع في وصف هذا التشتت وتضارب الآراء في كتابه الماتع"في مفترق الطرق"،وإن أردت معرفة ما يطالب باستبقائه من التراث فراجع كتابه الفريد والمميز"قيم من التراث".

وهذا ديدنه في رحلته الفكرية وعقليته الفلسفية،فدائما يبحث عن الصورة الكلية التائهة داخل التفاصيل،والصورة العامة الموزعة على الجزئيات، فينظم من الفروع جزوعاً،ومن الذرات جزيئاً.

فهو –رحمه الله حين انصرف بمعظم جهده إلى دراسة التراث العربي في أمهاته– وكان ذلك في منتصف الستينات وما بعدها– لم يفعل ذلك وفي نيته أن يكون عبداً لما يقرؤه،ولا أن يكون سيدا متعاليا عليه،كلا،ولا كان في نيته أن يقف مما قرأ موقف المؤرخ الذي يقضي الفترة التي يدرسها دون أن يأذن لنفسه بالحكم عليها وتقويمها بموازين عصره هو،وأدعه يتكلم عن غرضه من كتابته،وهدفه مما خطت يداه،وما قرأته عيناه في التراث فيقول:"بل قرأت ما قرأته ليكون حكمي عليه قائما على معايير عصرنا نحن،من حيث انتفاع الناس به وعدم انتفاعهم،إنني قرأت ما قرأته من التراث العربي قراءة مثقف يعيش في القرن العشرين،ويتنفس في مناخ حضاري له خصائصه ومقوماته،ويريد أن يرى الحبل موصولا بينه وبين أسلافه،لكنه في الوقت نفسه يشعر بأنه ما كل ما عاشه أولئك الأسلاف صالح له هو ولزمانه،ولكنه لا بد بحكم طبائع الأمور ذاتها،أن يكون في حياة الأسلاف كذلك ما يجوز –بل ما يجب–أن يبقى ليبقى الرباط،فاللغة–مثلا–التي أتحدث بها وأكتبها"عربية"،وهي نفسها ما كان يتحدث به الأسلاف وما كانوا يكتبون به–من حيث الروح والأسس إن لم يكن من حيث التفصيلات–وإذن فهذا رباط يجب الحفاظ عليه"[١].

وعلى ضوء هذا الرأي الذي تكون لزكي نجيب محمود خلال السنوات التي قضاها مجتهداً في تهيئة الأسباب التي تمكنه من رأي في

١ – قصة عقل ٢١٧.

التراث العربي يعرضه على الناس:"أخذ يكتب فيما تصوره من وجوب إيجاد صيغة جديدة للمواطن العربي بصفة عامة،والمواطن المثقف بصفة خاصة،وهي صيغة لا بد لها من أن تدمج جانبين في كيان واحد موحد،فمن التراث ما لا بد له من أن يبقى ليضمن للعربي استمرارية تاريخية في حياته الثقافية،وهي استمرارية ضرورية لتظل للعربي هويته في جوهرها لكن هذه الصلة الحيوية بين حاضر العربي وماضيه لا تكفي وحدها لتمكين العربي من اقتحام عصره الذي كتب له وكتب عليه أن يعيش فيه ومن أهم ما يميزه من عصور التاريخ السابقة كلها توجيه الاهتمام الأكبر نحو العلوم الطبيعية التي هي وسيلة الإنسان الوحيدة للكشف عن قوانين الطبيعة من مختلف ظواهرها،وإن الإنسان لتكون له السيادة على تلك الظواهر حقاً،بمقدار ما قد عرفه من قوانينها "[١].

ومنذ مطلع السبعينات،أخذ زكي نجيب محمود يصدر كتاباً في إثر كتاب،ومقالاً بعد مقال،وصيحة بعد صيحة،ليشرح ما يراه من الصيغة الثقافية المطلوبة المنشودة،التي يجدل فيها خيطين معاً:أولهما الجانب الذي استبقاه من ثقافتنا الأصيلة التي زرعت في أرضنا العربية ونمت وأثمرت،وثانيهما جانب متصل بالعلوم العملية والتطبيقية والتقنية في صورتها الجديدة،والمنهج التقني المميز لهذا العصر وغير ذلك مما هو حيوي لإقامة الحضارة على الصورة التي منها يتألف عصرنا في المقام الأول .

وهذا ما نادى به زكي نجيب محمود في قوله:"النهضة الثقافية تريد قناتين تنتهيان إلى ثالثة تغذيانها بما تحملانه من رحيق"والقناتان هما إحياء الماضي الذي يستحق الإحياء،ونقل من ثقافة الغرب لما يستحق أن

---

١ – حصاد السنين ص ١٦.راجع عن "الحرية أتحدث "ص ٥.

ينقل،فيكون الأمل المرجو بعد ذلك هو أن يتلاقى الغذاء آتيا من نفائس آبائنا من قناة الإحياء،وآتيا من نتاج الغرب قديمه وحديثه على السواء،من قناة الترجمة فإذا صادف ذلك المركب الغذائي موهبة أبدعت جديداً،بوحي مما استقبله من هنا ومن هناك؛فهكذا أراد الطهطاوي عندما أنشئت له مدرسة الألسن،لتكون دارا للترجمة عن أوربا،وأضاف هو إلى الترجمة نشاطاً آخر لنشر مختارات من عيون التراث،ثم جاءت مؤلفاته هو نموذجا بما يمكن أن يكون ضلع الإبداع من أضلاع المثلث الثقافي "[١].

كما يرى فضيلته أنه من حق كل منا أن يختار أحد الخيارين،على أن يتصدى لشرح ما اختار والدفاع عنه،وكان اختيار زكي نجيب محمود هو أن يؤخذ الوجه الحضاري من عصرنا،وأن يكيف المضمون الثقافي ليتلائم مع الظاهر الحضاري المأخوذ،لكن هذه الصيغة لا بد لها من ضوابط وتحفظات وضعها زكي نجيب محمود نفسه لنفسه،وإلا أمكن أن ينبثق منها شر لا يرضاه هو ولا من يبتغي الحفاظ على الأصالة والمعاصرة،إذا هي فهمت على إطلاقها،وفي ذلك يقول:"فما الذي يجوز تغييره من مضمونات حياتنا الثقافية لتتم الملاءمة مع حضارة العصر؟ ثم ما الذي نريد له أن يؤخذ من عناصر تلك الحضارة بحيث لا نشوه جوهرها،ولا نفتات في الوقت نفسه على اللب الثقافي الذي يميزنا أمة لها من السمات الخاصة ما تنفرد به؟قد يبدو للوهلة الأولى،أننا بهذه القيود،نكون قد نسفنا الغاية التي نتغياها"[٢].

---

١ – حصاد السنين ٣٣.

٢ – **حصاد السنين** ١٦٨.

ثم تحدث عن اللب الثقافي المطلوب استبقاؤه لأمتنا،كي يسمها بخصائصها الذاتية التي تنفرد بها،فحدد هذا اللب في أربعة أركان،تميز حياتنا الثقافية وتفردها بالنسبة إلى نظائرها في سائر الشعوب،وهذه الأركان الأربعة هي:"الدين،والفن بما فيه فنون الأدب،ومجموعة من التقاليد والأعراف تتناقلها الأجيال لا حقاً عن سابق،ثم مجموعة من الأفكار التي هي في صميمها موجهات للناس في حياتهم العملية،بما تنطوي عليه من معايير وأهداف.فإذا طالبنا بأن يتكيف المضمون الثقافي من حياتنا ليلائم الوجه الحضاري الجديد،منقولا إلينا من الغرب،كان هذا الذي نطالب به متغيرا تتغير صورته بالنسبة إلى كل مقوم من المقومات الثقافية الأربعة التي ذكرناها فأما أول تلك المقومات،وهو العقيدة الدينية،فهو مقوم ذو حصانة،فلا يجوز لمن يؤمن بعقيدة دينية أن يغير منها ويبدل بحسب الظروف الطارئة....وإلا فقدت معناها من حيث هي "عقيدة"ومن حيث هي "دين". ..إذن فليس هو الجانب الديني من النسيج الثقافي الخاص،هو الذي يتغير أمام الحضارة الجديدة الوافدة ليتلاءم معها،"[١] .

كلام في غاية النفاسة،وعبارات تصدح بإيمان صاحبها،وإخلاصه في مشروعه الفكري،فليس الجانب الديني من النسيج الثقافي أوالجانب العقدي هو الذي يتغير أمام الحضارة الجديدة،وإنما الذي يمكن أن يتكيف لها،هو المقومات الثلاثة الأخرى،وهذا المضمون هو ما ينبغي أن يكون العمدة والمحكم في فكر زكي نجيب محمود الذي يرد إليه ما اشتبه من فكره.

---

١ – حصاد السنين١٦٨، ١٦٩.بتصرف يسير

وشيئاً فشيئاً مع مر الأيام،أخذت تلك الازدواجية المتآلفة في الثقافة العربية،مشروعه الفكري الذي يهدف إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة،تبدو أمام عينيه وكأنها قابلية فريدة وسمة بارزة،يمكن أن تكون أساساً متيناً لإقامة ثقافة عربية جديدة،تصون أصالتها وتساير عصرها في آن واحد.

وما ذهب إليه زكي نجيب محمود ليس بدعا من الفكر،فهو نفسه ما فعله الأسلاف أيام مجدهم،فقد اختاروا لأنفسهم موقفاً فكرياً،يجمع لهم قلباً إلى رأس،ولكنهم كانوا أهل المعاصرة وأحيوا ما اندثر من تراث اليونانيين بغية الاستفادة منه،فبعد أن نقلوا إلى العربية"حكمة"اليونان"أي فلسفتهم:"جعلوا همهم أن يجدوا الصيغة التي تؤاخي بين شريعة الدين وحكمة اليونان،فكأنما وضعوا لنا برنامج العمل في يومنا هذا،وكل ما في الأمر من تغير،هو أن نضع"العلم"– الذي هو طابع عصرنا–مكان"الحكمة"أو الفلسفة التي كانت طابع اليونان الذين يمثلون "الغرب"عندئذ،فيصبح شعارنا هو أن نبحث عن طريقة يلتحم بها "علم العصر مع شريعة ديننا،فيكون لنا من الحياة الثقافية ما نريد لكننا أضفنا على ذلك أن هذه الصيغة المرجوة لا تتحقق لنا،إلا إذا كنا على تصور واضح بالطرفين:فنلم بحقيقة هذا العصر في جوهره لنعرف ما الذي يراد له أن يلتئم مع الطرف الثاني الذي هو حياتنا نحن كما تريدها لنا عقيدتنا الدينية،ومعها ما قد استقر في الوجدان العربي من قيم،فأما عصرنا،فجوهره علم يزيد من حرية الإنسان،وأما موروثنا المأثور في نظرته إلى ذلك العلم وهذه الحرية المترتبة عليه،فقد قدمنا عنه من الحديث ما يكفي"[١].

١ – حصاد السنين ٣٣٨.

وإذا كان التوفيق بين الدين والفلسفة عند أسلافنا في عهد قوتهم كان على حساب الدين،فأحرى بنا حين نشرع في إيجاد صيغة نجمع بها بين الأصالة والمعاصرة،أو التراث والعلم الغربي ألا نقع فيما وقعوا فيه،خاصة وأننا في عصر الهزائم،كما ينبغي علينا كلما أثيرت قضية التراث وما ينبغي أن يكون موقفنا منه أخذا ونبذا،ألا ترتعد فرائسنا،أو نجلب الصعاب،كأن هذه القضية سؤال بغير جواب أو مشكلة بل حل،أو عقدة بلا حلال،أو أن التباين على أشده بين تراثنا من ناحية وعصرنا من ناحية أخرى،فهذا هو ما تركه أسلافنا من فكر وشعر،من علم وأدب،دين وفلسفة،من فقه وتاريخ ورحلات،حديث وتصوف،فماذا نحن صانعون به؟؟ماذا نصنع أمام تراث ضخم يحوي الكثير من الحقائق والأوهام؟؟؟.

وإذا ثبت أن محاولة مفكرنا الجمع بين الأصالة والمعاصرة قد سبق إليها بما فعله أسلافنا،فإن نظرته الفلسفية الكلية لتاريخ الثقافات قد رسمت لنا صورة بديعة،قد خرجت لنا بنتيجة بديعة،مفادها قدرة الثقافة العربية والإسلامية على الجمع بين الحسنيين:"..غلبت النظرة العلمية على اليونان–والغرب كله بعدهم–وغلبت النزعة الصوفية على الشرق الأقصى،وأما الثقافة العربية فقد كان لها القدرة على أن تضم أولئك وهؤلاء في بناء متكامل،ففيها النظر العلمي على أعلى ذراه،وفيها الوجدان الصوفي إلى أعمق أغواره،فكانت هذه الثقافة العربية بجناحيها وقفة ثالثة جمعت في بنيانها بين الحسنيين.لكن ذلك الجمع لم يتحقق إلا في عصور قوتها،وأما إذا دب في أوصالها ضعف،جنحت إلى جانب الوجدان على حساب الموقف العلمي"[١]

١ – قصة عقل ٢٣٠

وهكذا اجتمع الطرفان- العقل والوجدان معاً- في ثقافة عالمنا العربي على نحو من التوازن الذي ربما لم يتحقق بالدربة نفسها في أية ثقافة أخرى،ففي تراثنا اجتمع تأمل المتصوف وتحليل العالم وصناعة العامل،ومن أجل إحياء الجانب العلمي في تراثنا العربي ألف زكي نجيب محمود كتابه الفريد"جابر بن حيان"بغية إلقاء الضوء على الجانب العلمي في تراثنا الفكري.

هكذا بجلاء يرى الدكتور زكي نجيب محمود لكي يكون العربي أصيلا ومعاصراً معاً،أن يضم إلى الحياة الوجدانية النظرة العقلية،ولو كانت تلك النظرة العقلية غريبة على الفكر العربي،لكان مطلب الأصالة والمعاصرة عسير التحقيق،ولكنه ليس عسيراً فقد فعله أسلافنا من قبل،وهو أيضاً سنة كونية فالبيئة العربية الإسلامية تجمع بين الحسنيين كما ذكرنا،كما أن الإسلام دين العقل ودين القلب.

ولقد صور هذه الثنائية المتآلفة في وجهة النظر العربية،بصور شتى فيما كتبه،فكتب تحت عنوان"الأصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة فصلاً طويلاً من كتابه"ثقافتنا في مواجهة العصر" يناقش فيه سطوع الثنائية المتآلفة المتكاملة في الثقافة العربية،وانظر الفصل الذي عقده في كتابه"نافذة على فلسفة العصر"والذي جاء بعنوان"اشكاليات تواجه الفكر العربي المعاصر"[١].

وتبدو هذه الثنائية في العديد من مؤلفات زكي نجيب محمود مثل:شروق من الغرب،أيام في أمريكا،حياة الفكر في العالم الجديد،الشرق الفنان،فلسفة وفن،في فلسفة النقد،مع الشعراء،قصة نفس،في حياتنا

١ – نافذة على فلسفة العصر د/زكي نجيب محمود ط كتاب العربي التابع لمجلة العربي ١٩٩٠م ص ١٣٥

العقلية،من زاوية فلسفية،قصة عقل،أفكار ومواقف،عربي بين ثقافتين،وثنائية الأرض والسماء في كتاب تجديد الفكر العربي ....

بقي أن ننبه لنقطة غاية في الأهمية،تتعلق بمنهجه في الجمع بين الأصالة والمعاصرة،وهو أنه كانت له وقفة أولى فيما قبل الخمسينات،ووقفه ثانية بعدها،ظاهر الأمر فيهما أنه قد صحح نفسه،ولكن باطن الأمر فيما يؤكد زكي نجيب محمود نفسه:"أن ما قد تغير هو النبرة دون الأهداف،فالغاية التي يتغياها في الحالتين واحدة،وهي أن تنهض الأمة العربية من غيبوبة فقرها وجهلها وضعفها وتفككها،إلى صحوة فيها القوة و العلم والثراء والتوحد ففيما قبل منتصف الخمسينيات أخذ عن عمد وإصرار،يبرز وجوب الأخذ بما أخذ به الغرب حتى ساد الدنيا بعلمه وصناعته وقوته،وأما بعد ذلك التاريخ فقد اتجه برجحان أكبر نحو إبراز الصيغة الثقافية المطلوبة إذا ما تحققت للأمة العربية نهضتها، وهي صيغة "[١]

فالرجل ابتغي رفعة أمته بما ارتفعت به سائر الأمم المتحضرة،ولما اكتشف مصادر القوة في تراثنا الذي لم يكن يعلم عنه شيئاً كما اعترف هو ،شرع في إيجاد صيغة مشتركة تجمع بين الحسنيين،بين أصالة من تراثنا ومعاصرة من الغرب المتقدم الذي فشل نفسه–وهو واضع العلم الحديث–أن يقيم لنفسه مثل هذا اللقاء بين الطرفين،فكان له العلم،ولكنه فقد الإنسان،وهكذا أصبحت الحضارة الأوربية حضارة بلا روح.

ولم تكن صيحات زكي نجيب محمود التي أطلقها بغية الجمع بين الأصالة والمعاصرة مجرد هتافات يطلقها أو صرخات يقذفها ولكنها منهج

---

١ – حصاد السنين ٣٢٣.

خطه،وأفكار رسمها،ومؤلفات صاغها،وإن شئت الدقة فما عليك سوى مطالعة بعض كتاباته مثل: قيم من التراث،افكار ومواقف،وأن أردت مزيدة من الدقة والتحديد فعليك بكتابه الرائع المعقول واللامعقول من تراثنا الفكري

ففي هذا الكتاب وقف مع الأسلاف في نظراتهم العقلية وفي شطحاتهم اللاعقلية كليهما،ليأخذ لقطات من حياتهم الثقافية ليرى نوعية مشكلاتهم الفكرية،وكيف التمسوا لها الحلول،دون أن يتقمص أرواحهم أو يرى بعيونهم أو يحس بقلوبهم،بل آثر لنفسه الاحتفاظ بعصره وثقافته.

وعن هذا الكتاب ومنهجه في تأليفه واختياره،نراه يقسم كتابه قسمين،وبعبارته يقول:"قسمت الكتاب قسمين:جعلت أحدهما لرحلتي على طريق العقل عندهم،وجعلت الآخر لبعض ما رأيته عندهم مجافياً للعقل لائذاً بما ظنوه أعلى منه،وتعمدت أن يجيئ القسم الأول أكبر القسمين،لتكون النسبة بين الحجمين دالة بذاتها على النسبة التي أراها واقعة في حياتهم الفعلية بين ما وزنوه بميزان العقل وما تركوه لشطحة الوجدان"[١].

فهو في هذا الكتاب أشبه بمسافر في أرض غريبة،حط رحاله في هذا البلد حينا وفي ذلك البلد حيناً،كلما وجد في طريقه ما يستلفت النظر ويستحق الرؤية والسمع،وقد استفدنا كما استفاد هو من ثقافته الغربية فاستخدم المنهج الغربي في التفكير فنبهنا لكنوز تراثنا التي غابت عنه وعن كثير منا،كالنظرة العقلية عند أسلافنا كلما صادفتهم مشكلة جماعية التمسوا لحلها طريقة المنطق العقلي في الوصول إلى النتائج،وكادت النظرة اللاعقلية أن تقتصر على الحياة الخاصة للأفراد .

---

١ – المعقول واللامعقول منتراثنا الفكري ص ٨،٩.

الخاتمة

١-إن المتتبع بعمق لحياة زكي نجيب محمود يجد حياته يمكن تقسيمها تبعا لعقود عمره،ففي كل عقد كان يغلب عليه سمة معينة،تكشف مدى أصالة فكره من تقليده لغيره وهذا مؤشر للتقلبات الفكرية التي مر بها مفكرنا الكبير،والتطور الذي لحق به،ومن الإجحاف الوقوف عند مرحلة ما والحكم عليها وتعميم هذا الحكم.

٢-وقع خلاف بين اللغويين في تحديد المراد بمصطلح الأصالة،فهناك من يرى أن الأصالة تكون في الفكرة من حيث عناصرها ومكوناتها فلا تكون متأثرة بأي فكر سابق عليها في البنية أو المعالجة،هنا فقط تكون الفكرة مستحقة لصفة الأصالة،وعلى هذا الرأي فالجزم بأصالة فكرة معينة ونسبتها لأصحابها سيكون من باب الظن،وهناك من يرى أن الأصالة تكون في المفكر الذي يأخذ الفكرة السابقة عليه ويبني عليها ويعيد صياغتها ومعالجتها،ويبتكر في تركيبها والنتائج التي يخلص إليها،وبهذا تأخذ الفكرة طابعاً شخصياً يدل على أحد بعينه،وإن كانت الفكرة نشأت على يد آخر،وإن كان بعض عناصرها ومفرداتها قديماً وسبق إليه،ولكن البراعة العقلية في تنسيق وحسن استخدامها،وهذا المعنى هو ما يتفق وفكر زكي نجيب محمود الذي يرى أن الصالة هي إحياء التراث ويعني به هو أن يخرج قارئه ودارسه بروح يستمدها مما قرأ أو درس،ليبثها في حناياه فإذا هو مصطنع لنظرة جديدة،من شأنها أن تعقد الأواصر بينه وبين السلف الذي أحيينا تراثه،حتى لو وقف من مضمون إرثه موقف الناقد أو المشكك.

٣-مفهوم مصطلح المعاصرة:يدور حول التزامن،وهو أن يتزامن شيئ مع شيئ أو مع أشياء في عصر واحد،لكن هذا المصطلح ارتبط بالتطور

العلمي والفكري عند الغرب،وارتبط بالقوى الاقتصادية أكثر،فصار الغرب بجملته صورة التطور والتقدم،وصار كل ما يقدمه هو الحضارة،ولم يعرف هذا المصطلح عن قدماء المفكرين أو فلاسفة الإسلام

٤-ثقافة العصر عند زكي نجيب محمود التي نواجهها أو لا نواجهها،نقبلها أو نرفضها،أو نتخير منها هي يقيناً ليست كل فكرة جرى بها قلم في صحيفة أو كتاب،بل هي مختارات من تلك الحصيلة الكبرى،وجدناها ذات صلة مباشرة بحياتنا ومصيرنا،فوقفنا عندها قبولا أو رفضاً أو تحليلا ينتهي بتعديل أو تبديل.

٥-زكي نجيب محمود قد جذبته المعاصرة الوافدة جذباً شديداً بحيث أطاحت في باكورة حياته العلمية بالأصالة الموروثة،فقد كان يقول وبتعصب شديد للمعاصرة،وجهل كبير بالتراث الموروث:إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً،وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارةً ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم،وكان دافعه الخبيء إلي هذا الموقف المتطرف هو إلمامه بشيء ليس بالقليل من ثقافة أوربا وأمريكا وجهله بالتراث العربي جهلاً كاد أن يكون تاماً،والناس- كما قيل بحق- أعداء ما جهلوا.

٦-لم تكن مشكلة الجمع بين الأصالة والمعاصرة هذه مشكلته وحده،فقد سبقه إليها سلفنا،وإذا كان التوفيق بين الدين والفلسفة عند أسلافنا في عهد قوتهم كان على حساب الدين،فأحرى بنا حين نشرع في إيجاد صيغة نجمع بها بين الأصالة والمعاصرة،أو التراث والعلم الغربي ألا نقع فيما وقعوا فيه.

٧-وقد ظلت هذه المشكلة مستمرة لعصر زكي نجيب محمود،فلم تكن مشكلته وحده،بل مشكلة جيله وعصره،فمنهم من يقبل الغرب كله والتراث كله ويحسب أن الجمع بينهما أمر ممكن، ومنهم من يقبل الغرب كله وبعض التراث دون بعض،ومنهم من يقبل التراث كله وبعض الغرب دون بعض،ومنهم من يجري تعديلاً في التراث وفي الغرب معاً،ومنهم من يكاد يرفض الجانبين معاً،فلا هو قد تعلم شيئاً من التراث العربي ليعرفه،ولا هو يرضى بقبول الثقافة الغربية خشية أن يقال عنه إنه من توابع المستعمرين.

٨-كما يرى زكي نجيب محمود أن الأصالة والمعاصرة هما سبيل النهضة الثقافية التي تريد قناتين تنتهيان إلى ثالثة تغذيانها بما تحملانه من رحيق،والقناتان هما إحياء الماضي الذي يستحق الإحياء،ونقل من ثقافة الغرب لما يستحق أن ينقل،فيكون الأمل المرجو بعد ذلك هو أن يتلاقى الغذاء آتيا من نفائس آبائنا من قناة الإحياء،وآتيا من نتاج الغرب قديمه وحديثه على السواء،من قناة الترجمة فإذا صادف ذلك المركب الغذائي موهبة أبدعت جديداً،بوحي مما استقبله من هنا ومن هناك.

٩-لزكي نجيب محمود كلمات غاية في النفاسة،وعبارات تصدح بإيمان صاحبها،وإخلاصه في مشروعه الفكري منها:فليس الجانب الديني من النسيج الثقافي أوالجانب العقدي هو الذي يتغير أمام الحضارة الجديدة،وإنما الذي يمكن أن يتكيف لها ما سوى ذلك.

١٠-فالرجل ابتغي رفعة أمته بما ارتفعت به سائر الأمم المتحضرة،ولما اكتشف مصادر القوة في تراثنا الذي لم يكن يعلم عنه شيئاً كما اعترف هو،شرع في إيجاد صيغة مشتركة تجمع بين الحسنيين،بين أصالة من تراثنا ومعاصرة من الغرب المتقدم الذي فشل نفسه-وهو واضع العلم

الحديث–أن يقيم لنفسه مثل هذا اللقاء بين الطرفين،فكان له العلم،ولكنه فقد الإنسان،وهكذا أصبحت الحضارة الأوربية حضارة بلا روح.

١١–ولكنه انتهى لمنهج من أهم معالم هذا المنهج:عدم التنكر للماضي،والتنكر ضرب من الجنون،ليس كل الماضي مقدساً،بل نأخذ من الماضي ما يخدم الحاضر،وهكذا الماضي بين الإنكار والتقديس أو التراث بين الحقيقة والوهم يدور الجمع بين الأصالة والمعاصرة في فكر زكي نجيب محمود.

١٢–قضية الأصالة والمعاصرة هي المحور الرئيسي الذي دار حوله فكر زكي نجيب محمود في كل مؤلفاته.

بسم الله الرحمن الرحيم:{دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}يونس:١٠.صدق الله العظيم.

أهم المراجع والمصادر

القرآن الكريم

السنة الشريفة

*-ابن منظور

١-لسان العرب ابن منظور.ط ١ دار صادر بيروت

*الجرجاني

٢-التعريفات للجرجاني ط الحلبي

*الجمل أد/ أحمد عبده حمودة الجمل

٣-نظرات في الفلسفة الحديثة ط ١ ١٩٩١م

*الرازي أبو بكر الرازي

٤-مختار الصحاح محمد بن ابي بكر الرازي ط ٣ الأميرية ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م

*العراقي د عاطف العراقي

٥-زكي نجيب محمود مفكرا عربيا ورائدا للإتجاه العلمي التنويري.كتاب تذكاري تحت إشراف وتصدير د/ عاطف العراقي ط دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الاسكندرية

*المقدم محمد أحمد إسماعيل المقدم

٦-عودة الحجاب دار طيبة (توزيع دار الصفوة) - الطبعة العاشرة، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

*حنفي

٧-حوار الأجيال د/ حسن حنفي ص ٢٢٩.ط دار قباء ١٩٩٨م.

*العفاني أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني

٨-وَا مُحَمَّدَاهُ {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} الناشر: دار العفاني، مصر الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.٢/٣١٦.

*الندوة العالمية للشباب الإسلامي

١٠-الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ

*الهيئة المصرية العامة للكتاب

١١- مصطلحات الفكر الحديث سامي خشبة مكتبة الأسرة ط ١ ٢٠٠٦م .

* زكي د/ زكي نجيب محمود -

١٢--أفكار ومواقف ط دار الشروق ط٢ ١٩٨٦م .

١٣-المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ط دار الشروق ط ٢ ١٩٧٨م

١٤-تجديد الفكر العربي زكي نجيب محمود ط دار الشروق ٢٠٠٢م

١٥-جابر بن حيان سلسلة أعلام العرب٣ الجمهورية العربية المتحدة ط مصر

١٦-ثقافتنا في مواجهة العصر زكي نجيب محمود ط دار الشروق

١٧- حصاد السنين زكي نجيب محمود ط٣ دار الشروق ٢٠٠٥م.

١٨-رؤية إسلامية ط٣ ١٩٩٣م دار الشروق

١٩-عربي بين ثقافتين ط ٢ دار الشروق ١٩٩٣م.

٢٠-عن الحرية أتحدث ط دار الشروق

٢١- في حياتنا العقليةد/ زكي نجيب محمود ص ١٦ ط ٣ ١٩٨٩م .ط دار الشروق

٢٢-في مفترق الطرق ط٢ دار الشروق ١٩٩٣م .

٢٣-قصة عقل ط ٢ دار الشروق ١٩٨٨م
٢٤-قصة نفس ط ٤ دار الشوق ١٩٩٣م.
٢٥-قيم من التراث ط دار الشروق ٢٠٠٠م
٢٦- الشرق الفنان ط دار القلم وزارة الثقافة والإرشاد القومي
٢٧-قشور ولباب ط دار الشروق
٢٨-مجتمع جديد أو الكارثة ط دار الشروق
٢٩-من خزانة أوراقي د /زكي نجيب محمود ط دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ط ١ ١٩٩٦م من زاوية فلسفية ط دار الشروق ط ٤ ١٩٩٣م .
٣٠-موقف من الميتافيزيقا ط ٤ دار الشروق ١٩٩٣م .
٣١-نافذة على فلسفة العصر د/زكي نجيب محمود ط كتاب العربي التابع لمجلة العربي ١٩٩٠م
٣٢-مجلة الرسالة يناير ١٩٤٤م.